مقدمة

يعتبر السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباي من أعظم سلاطين دولة المماليك، وتعتبر فترة حكمه ثاني أطول فترة لسلطان مملوكي بعد الناصر محمد بن قلاوون، فقد تولى قايتباي السلطنة سنة 872هـ/ 1468م وقضى في الحكم 29 عاماً حتى توفي سنة 901هـ/ 1496م، وقد ساعدت تلك الفترة الطويلة في نشر الأمن في جميع نواحي السلطنة.

وحظي الحجاز والحرمين الشريفين خاصة عناية ورعاية وحب السلطان قايتباي بما أوقفه هناك من أوقاف عظيمة لأهل الحجاز والحرمين الشريفين والحجاج والمعتمرين والمجاورين، لهذا نرى أن أمير مكة محمد بن بركات المعاصر لقايتباي سمّى أحد أبنائه باسم قايتباي وقد تولى الإمارة بعد أبيه.

وبلغ حرص قايتباي على وصول أوقاف الحرمين إلى مستحقيها أنه نقش على باب وكالته التي أنشأها بخط باب النصر بالقاهرة سنة 885هـ/ 1480م (أثر رقم 9) "بسم الله الرحمن الرحيم. أمر بعمارة هذا المكان المبارك سيدنا ومالك رقابنا المقام الأعظم الملك الأشرف أبو النصر قايتباي عز نصره وجعله وقفاً مصروفاً أجرته على جيران النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة الشريفة يشتري به القمح وتعمل منه الدشيشة للمجاورين والواردين ابتغاء لوجه الله".

وحوى كتاب وقف السلطان قايتباي المحفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس المؤرخ 24 صفر 888هـ/ 3 إبريل 1483م، 15 ربيع الآخر 888هـ/ 23 مايو 1483م، 24 ربيع الآخر 890هـ/ 10 مايو 1985م، معلومات هامة عن خيرات قايتباي بالحرمين الشريفين، ومن أهم ما جاء بكتاب الوقف هذا هو وصف لمنشآت هامة أنشأها قايتباي بالمدينة المنورة الشريفة وموقعها ودورها الديني والثقافي والاجتماعي، كما حوى كتاب الوقف وصفاً لمنشآت كثيرة وتحديد أراضي خراجية وبساتين بمصر والشام والحجاز تدر دخلاً عظيمًا للحرمين وأبناء الحرمين وزوار الحرمين.

وأهم تلك المنشآت مدرسة قايتباي التي أنشأها بالمدينة المنورة بخط باب السلام، ويوجد وصف دقيق لها بكتاب الوقوف هي وملاحقها مثل الرباط الذي يحوي 38 خلوة

لإقامة الصوفية وسبيل الماء ومكتب تعليم أيتام المسلمين والحوانيت المجاورة لها. كما يوجد وصف لوكالة تجارية كبيرة أنشأها قايتباي بجوار المدرسة والحوانيت المجاورة لها ومطبخ الدشيشة ومخزنها والطاحون والفرن والأروقة التابعة لها، وكذلك أنشأ قايتباي بجوار المدرسة والوكالة حماماً كبيراً. وقد حدد السلطان قايتباي بكتاب الوقف أرباب الوظائف بالمدرسة والرباط والسبيل والمكتب وكذلك رواتبهم وأيضًا أوقف الأموال اللازمة لما تحتاجه المدرسة من مصاريف.

ومن أوقاف قايتباي أيضاً بالمدينة الشريفة دار كبيرة بالقرب من باب السلام، وحديقة بالقرب من قباء، وثلاث حدائق بعالية المدينة الشريفة.

وبالديار المصرية أوقف قايتباي على الحرمين ومصالحهما وأهلهما وزوارهما أوقافاً كثيرة معظمها منشآت تجارية تدر دخلاً عظيماً، وكذلك أراضي زراعية خراجية لنواحي عديدة بأقاليم مصر المختلفة بالوجهين البحري والقبلي تزيد على مائة ألف فدان.

وفي الختام أشكر الصديق أ.د حسام اسماعيل الذي نبهني إلى أهمية كتاب وقف قايتباي هذا، كما أشكر الصديق مجدي عبد الرازق الذي صوره لي، ويسعدني أن أهدي هذا العمل للصديق/ وسام قدري الباحث التاريخي بوزارة الآثار، والله ولي التوفيق.

محمد الششتاوى